

اللغة العربية والاسلام

في الداغستان

للأستاذ برهان الدين الداغستاني

على الضفة الغربية من بحر الخزر ، وعلى المنحدر الشرق لجبال
التوقاز ، بلاد جبلية تذكرنا بمناظرها ، وأشكالها الطبيعية ، وحياتة
سكانها الاقتصادية جبال لبنان ، لكنها أشد برداً منها وأكثر
وعورة وأجمل منظرًا .

وهذه البلاد الجبلية هي التي تعرف اليوم بالداغستان ، أي
البلاد الجبلية . وقد أطلق عليها العرب يوم احتلوها أسماء شتى .
سماها الجبال ، وبلاد الباب ، أو الباب والأبواب ، وبلاد صاحب
السريز ، وبلاد الخزر ، إلى غير ذلك من الأسماء التي لم تكن
تشمل كل البلاد ، بل قسماً منها أو أقساماً بعضها مستقل عن
البعض الآخر . وأكثره واقع في جنوبي الجبال ، وكان داخلاً
في حكم الفرس حتى الفتح العربي كما يؤخذ من البلاذري واليعقوبي
والطبري وغيرهم^(١)

ويحد بلاد الداغستان هذه من الجنوب جمهورية آذربيجان ،
ومن الشمال نهر « ترك » ، ومن الشرق بحر الخزر ، ومن الغرب
جبال « أبرز » ، و « قازيك » و « دويال » الشهير وجزء من
بلاد الكرج واركنس .

كانت هذه البلاد الجبلية التي يسلكها الفاتحون الآسيويون
إذا أرادوا الإفاضة على أوروبا ، وبلاد الروس الصقلية ، ويمبره
الروسيون والتتار من الشمال إلى الجنوب إذا أرادوا التوغل في
أعماق آسيا ، ولذلك كانت - دائماً - محط أنظار الفاتحين
والغزاة من قديم الزمان إلى يوم الناس هذا .

ولم تكف جيوش الإسلام والدرب تحتل أرمينية و آذربيجان

١ - أنظر بحثنا في جمهورية الداغستان للدكتور بندل جوزي أستاذ
آداب اللغة العربية بجامعة باكو . في العدد الخامس من السنة الثانية من مجلة
الرابطة العربية للعلوم والثقافة في سنة ١٩٢٩ م

في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى أصعدوا شمالاً نحو
« باب الأبواب » .

وكان أول من سار إلى تلك الجهات هو سراقه بن عمرو ،
ومعه عبد الرحمن بن ربيعة ، وحذيفة بن أسيد ، وبكير بن عبد الله ،
وسلمان بن ربيعة مع نفر من المجاهدين ، فوصلوا إلى « دربند »
- باب الأبواب - وفتحوها في سنة ٢٢ هجرية وفي فتح
« دربند » يقول سراقه بن عمرو :

ومن يك سائلاً عنى فإني بأرض لا يؤاتيهما القرار
بياب الترك ذي الأبواب باب لها في كل ناحية مفار
تذود جموعهم عما حوينا ونقتلهم إذا باح السرار
سدنا كل فرج كان فيها مكابرة إذا سطع الفبار
وأفحمنا الجياد جبال قبيح وجاور دورم مناديار
وبادرنا المسدد بكل فج نناهم وقد طار الشرار
على خيل تمادى كل يوم عناداً ليس يتبهما المهار

ولسكنهم لم يكادوا يجاوزونها إلى « بلنجر »^٢ حتى لقيهم
خان الخزر في خيوله على نهر « بلنجر » فقتل الفريقان قتالاً شديداً ،
وقتل قائد الجيش سراقه بن عمرو ، فتولى القيادة بعده عبدالرحمن
ابن ربيعة الباهلي ، وواصل القتال ، وجاء المسلمين مدد من أهل
الشام بقيادة حبيب بن مسلمة فاشتد القتال بين المسلمين والخزر
حتى قتل قائد الجيش الإسلامي عبد الرحمن بن ربيعة أيضاً ،
واستشهد معه خلق كثير ، واضطر الباقون إلى الانسحاب إلى
« دربند » بعد أن أخذ الراية سلمان بن ربيعة الباهلي ، وقاتل
حتى استطاع أن يدفن أخاه بنواحي « بلنجر » وفي مقتل عبدالرحمن
بن ربيعة الباهلي « بلنجر » ، وقتيبة بن مسلم بالصين يقول
عبد الرحمن بن جمانة الباهلي :

وإن لنا قبرين قبرا بلنجر وقبرا بصين استان يالك من قبر
فهذا الذي بالصين عمت فتوحه وهذا الذي يدق به سبل القطر

وهناجروى المؤرخون أن خلافاً دب بين جيوش المسلمين على

١ : راجع حجم الجبال في مادة باب الأبواب

٢ : هي المرولة بين المستاتين باسم نارخو

من يتولى القيادة بدل عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي، فأهل الكوفة يريدون تولية سلمان بن ربيعة الباهلي خقيق عبد الرحمن، وأهل الشام يريدون تنصيب أميرهم وقائدهم حبيب بن مسلمة وكادت تكون فتنة، حتى قال شاعر أهل الكوفة يومئذ يذكر هذا الخلاف، ويشرح أوجهه نزار الكوفيين:

فإن تضربوا سلماناً تضرب جيبكم وإن ترحلوا نحو بن عفان ترحل
ولا تقسطوا فالتفرئنا ميرنا وهذا أمير في القبائل مقبل
ونحن ولاية الثغر كنا حماة ليالي يرمى كل ثغر نوكل
وفي النهاية تم الاتفاق على تقليد سلمان بن ربيعة الباهلي إمارة الجيش مكان أخيه عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي، فمبا سلمان جيشه، وسار نحو «بلنجر»، فلقية على نهرها خاقان الخزر في خيوله أيضاً، فاقتل الفريقان قتالاً شديداً حتى قتل سلمان بن ربيعة الباهلي أيضاً، وقتل معه خلق كثير من رجاله قيل أربعة آلاف قتيل، واضطر المسلمون مرة أخرى إلى الانسحاب بعد أن حلوا معهم جملة سلمان بن ربيعة الباهلي وكثيراً من جرحاهم إلى «دربند» ولكن الجيوش الإسلامية المنسحبة في هذه المرة لم تقف في «دربند»، بل تفكك شملها، وتشتت في كل أنحاء.

وبعد هذا الانكسار الذي منى به المسلمون في هذه الجهة ففرت حركة الحملات المكربة إلى هذا الميدان النائي بفعل الحوادث الداخلية التي أعقبت مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، وحروب ماوية وعلى، وما تبع ذلك من الفتنة حتى إذا ولي الخلافة الإسلامية الوليد بن عبد الملك جهز جيشاً كبيراً بقيادة مسلم بن قتيبة ووجهه سنة ٨٩ هـ إلى أرمينية، فالداغستان، فقاتل الخزر وفتح كثيراً من البلاد، وغنم الغنائم، ثم قفل راجعاً. ثم وجه الوليد بن عبد الملك أخاه مسلمة بن عبد الملك على رأس جيش قوى إلى تلك البلاد أيضاً، فقاتل أهلها وغلبهم على كثير من بلادهم، وغنم غنائم كثيرة، ثم رجع بها.

وفي سنة ١٠٥ هـ وجه يزيد بن عبد الملك جيشاً إلى هذه البلاد بقيادة الجراح بن عبد الله الحكيم من مذحج، فسار إلى الخزر فقتل منهم مقتلة عظيمة، وسبي وغنم، ثم رجع إلى جنوبي

أرمينية، فحاشت الخزر، ولحقت به، فخارهم في صحراء «ورشان» فأنحازوا إلى ناحية أردبيل، فواقهم على أربعة فراسخ مما يلي أرمينية، فاقتتلوا ثلاثة أيام، فاستشهد الجراح هناك، وقتل كثير من جنده، وتفرق الباقون، ونشبتوا في اضطراب. رعى نهر هناك باسم الجراح، كما سمي جسر عليه جسر الجراح أيضاً، ثم كان أن عاث الخزر في البلاد، وفقد العرب هيبتهم، فانسحبوا من أطراف أرمينية. حتى إذا ولي الخلافة هشام بن عبد الملك ولي أخاه مسلمة بن عبد الله سقر بنى أمية، وبطلها الجرب أرمينية، وأمره أن يسير إليها برجاله وقواده ليظهر البلاد من الخزر، وعن طمع فيها بعد قتل الجراح، فسار إليها في سنة ١١٢ هـ وقد وجه على مقدمته سميد بن أسود الحرسي، ومعه كثير من القواد بينهم الوليد بن القمقاع العبسي، وسار مسلمة مظفراً منصوراً حتى وصل إلى مدينة «باب الأبواب» وفتحها من جديد، وكان في قلمتها ألف أهل بيت من الخزر، فحاصرهم ورمم بالحجارة، ثم عمد إلى غير ذلك من وسائل الهجوم حتى اضطرم إلى الحرب، وإخلاء القلعة، فلما فتحها وغيرها من القلاع الحصينة أخذ يتقدم في البلاد ويحتلها إلى أن تم له فتحها كلها، فعاد إلى «باب الأبواب» بجيشه الذي استصحبه معه من الشام، وكان عدده أربعة وعشرين ألفاً، فأسكنهم المدينة المذكورة على المطاء ثم احتل مواقع أخرى هامة، وقبض على البلاد بيد من حديد.

وفي سنة ١١٨ هـ وجه هشام بن عبد الملك قائداً جديداً إلى هذه البلاد وهو أسد بن زعفر، فثبت ملك العرب وقوى سلطان المسلمين، وفي عصر الوليد بن يزيد بن عبد الملك أرسل الوليد إلى هذه البلاد مروان بن محمد. آخر الخلفاء الأمويين - على رأس جيش كبير، فكان أكبر مساعد على تثبيت مركز الإسلام، ودعم أسس الدولة الإسلامية الرابية في تلك الربوع إذ لم يكن أقل من عمه مسلمة ثباتاً وعزماً وبعد نظر، فواقع الخزر، وأبلى بلاء حسناً، ولما انصرف مسلمة إلى الشام بعد ذلك بقي مروان في أراضي «باب الأبواب» يتمهد ثغورها وأحوالها، ويوطد السلطان العربي الإسلامي فيها حتى أقر له القريب من القبائل وملوكهم والبعيد، وهابته الخزر وأخذت تنودد إليه، وتؤدي له

قربة ومدينة ، وحتى انتشر الدعاة والحكام والأمراء المسلمون
يملحون ويرشدون ، ويبنون المساجد ، ويقومون منارات الدين
والهدى في كل مكان ^١ .

ومن ذلك التاريخ أصبح هذا الاقليم إسلامياً يدين
بالاسلام ، ويخلص له ، وأصبحت مدينة ، « دربند » أو « باب
الأبواب » تقرأ من ثغور المسلمين يربط فيه في سبيل الله ^٢ .
ولذلك لم تخرج هذه البلاد على العرب يوم شنوا عنها بحروبهم
الأهلية التي نقلت الملك إلى بني العباس ، بل بقيت في
أيديهم إلى ظهور السلاجقة .

وإذا كان سلطان العرب السيامي قد انكشف عن هذه البلاد
بعد ذلك ، فإن أهل البلاد حافظوا في جميع الأدوار التي مرت بهم
وفي عصور جميع الفانحين والنزاة لبلادهم بعد ذلك وإلى أن وقفت
في أيدي الروسيين في أوائل القرن التاسع عشر - حافظوا
بأمانة وإخلاص في جميع تلك الأدوار على شيء من استقلالهم
الداخلي وسودينهم الجديد ، وتقاليدهم الموروثة ، وحافظوا
على التفاهم باللغة العربية محافظة غريبة لا نهدها في غير هذه
البلاد . بذلك على ذلك أن اللغة العربية لا تزال إلى اليوم لغة
التدريس والتأليف والتفاهم بين علماء الداعستان والطلبة ، وم
يتكلمون ويكتبون بها كأبنائها ، ولهم فيها مجلة شهرية تعنى
بفكر الدين والأدب ينشرها الكاتب الشهير أبو سفيان ^٣ .

البيعة في العدد القادم برهانه الربيع الراهستانه

(١) راجع كتاب آثار داغستان تأليف مرزا حسن القناري الداغستاني
الطبع في طرسيورخ سنة ١٣١٤ هـ :

(٢) هذا هو الثابت في كتب التاريخ المتعددة من أن مسلمة بن عبد الملك
هو الذي فتح بلاد الداغستان فتحاً تاماً لأول مرة وبسط سلطان الاسلام
في تلك البلاد ، ولبت قواعده .

وقد اشهر على السنة الداغستانيين ، وتلقه عنهم كثير من الكتاب
والمؤرخين أن فاتح الداغستان هو أبو مسلم ولذلك ينقرونهم اسم أبي مسلم
كثيراً ، ولكن على كل حال خطأ مشهور .

كذلك في كتاب آثار داغستان تأليف مرزا حسن القناري الداغستاني
الطبع في طرسيورخ سنة ١٣١٣ هـ .

(٣) راجع مجلة بحث الدكتور بندل جوزي من جمهورية الداغستان في
العدد السادس من السنة الثانية من مجلة الرابطة العربية ، وقد كتب ذلك
البحث ونشر سنة ١٩٢٩ م .

الطاعة والجزية .

قال البلاذري : إنه لما بلغ عظيم الخزر كثرة من وطىء به
مروان بلاده من الرجال ، وسامه ايسه في عدتهم وقوتهم نخب
ذلك قلبه ، وملاًء رعباً ، فلما دنا منه أرسل إليه رسولا يدعووه
إلى الاسلام أو الحرب ، فقال : قد قبلت الاسلام ^١ فأرسل إلى
من يررضه على ، فقبل ، فأظهر الاسلام ، ووادع مروان ، فأقره
في مملكته ، وسار مروان معه بخان من الخزر ، فأزلهما ما بين
السمور والشابران في سهل أهل « الكز » ، ثم دخل مروان
أرض صاحب السرير ، فأوقف بأهلها وفتح فيها قسلاً ، ودان
ملك السرير وأطاعه ، فصالحه على ألف رأس وخمسمائة غلام
وخمسمائة جارية سود السمور والحواجب وهذب الأشفار في كل
سنة ، وعلى مائة ألف مد تصب في أهراء « الباب » وأخذ
منه الرهن ^٢ .

وهكذا كان يصف مع جميع ملوك الجبل وما وراءه ، فكان
يحملهم على الصلح وتادية الجزية ، ثم يقرم على ملكهم ، فكان
من نتائج هذه السياسة الحكيمة في تلك البلاد أن رسخت قدم
العرب فيها ، وانتشر فيها دينهم بسرعة عجيبة حتى لم يبق الأديان
التديعة التي سبقت أثر يذكر ، وانتشرت مع الإسلام لغته العربية ،
فأصبحت بعد قليل من الزمن لغة الكتابة والتعليم والتفاهم
بين أهل الجبل المختلف اللغات واللهجات ، وهي لا تزال كذلك
إلى اليوم مع تماثل في بعض الأسماء انتضت الظروف
والأحوال الحاضرة ^٣ .

وكل ذلك يرجع إلى سياسة بني أمية الحازمة ، وعلى الأخص
سياسة هشام بن عبد الملك وأخيه مسلمة وابن أخيه مروان بن محمد
آخر الخلفاء الأمويين .

وفي هذه المرة استطاع مسلمة بن عبد الملك أن يبسط سلطان
الاسلام في هذه الربوع ، فأكل فتح أنحاء الداغستان ، ولم تأت
سنة ١١٥ هـ حتى كان سلطان الاسلام باسطاً جناحيه في كل

(١) فخر البلدان البلاذري ص ٢٠٦

(٢) فخر البلدان البلاذري ص ٢٠٨

(٣) راجع القسم الثاني من بحث الدكتور بندل جوزي في العدد السادس
من السنة الثانية من مجلة الرابطة العربية ، وقد كتب ذلك البحث ونشر
سنة ١٩٢٩ م . أي بعد الانقلاب الشيوعي بأكثر من عشرة أعوام .